منهج ابن الزبير الغرناطي في توجيه الفعلين المتقاربين في المعنى من خلال كتاب (ملاك التأويل) دراسة تحليلية موازنة

محمد فاضل السامرائي *

تاريخ تقديم البحث: ٢٠١٨/٧/٢٧م. تاريخ قبول البحث: ٦/١١ /٢٠١٩م.

ملخص

موضوع هذا البحث هو (منهج ابن الزبير الغرناطي في توجيه الفعلين المتقاربين في المعنى من خلال كتاب ملاك التأويل)، إذ كان لابن الزبير وقفات على الآيات المتشابهة التي تتعاور فيها الأفعال المتقاربة في معانيها ليبين سبب تخصيص كل آية بفعلها. وقد قمت باستقراء هذه الأفعال في كتاب (ملاك التأويل) ودراستها عند ابن الزبير وغيره من العلماء القدامى والمعاصرين. واستهللت بحثي بتعريف موجز بابن الزبير وكتابه الملاك، ثم جعلت دراستي مرتكزة على مبحثين أساسيين: تناولت في الأول منهما منهج ابن الزبير في التوجيه المعنوي للأفعال المتقاربة في معانيها، وفي المبحث الثاني ذكرت منهجه في التوجيه اللفظي لها. وقد استقصيت جميع الأفعال التي ورد ذكرها في الآيات المتشابهة، ويمكن أن توصف دراستي بأنها استقرائية تحليلية.

وقد توصلت إلى عدة نتائج: منها أن ابن الزبير عني بالتوجيه المعنوي للأفعال كما عني بالتوجيه اللفظي لها، ومنها أن هناك تنوعًا في طريقة توجيهه الأفعال، ومنها أنه قد ينفرد في توجيهه بعض التكلف.

الكلمات الدالة: ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل، الأفعال المتقاربة المعنى، الآيات المتشابهة

* دولة الإمارات العربية المتحدة . جامعة الشارقة .

حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة. الكرك، الأردن.

Ibn Al-Zubayr Al-Garnatī's Approach In selecting Synonymous Verb Pairs Through Milaak Al-Taaweel

Dr. Mohammed Fadhel Saleh Al-Samarrai

Abstract

This study investigates Ibn Al-Zubayr Al-Garnatī's approach in selecting synonymous verb pairs through 'Milaak Al-Taaweel.' Ibn Al-Zubayr focussed on similar verses that included such verbs, showing why each verse was related to its verb. In this research, I have studied these verbs by presenting Ibn Al-Zubayr's method in directing such verbs. My research began with a brief definition of Ibn Al-Zubayr and his book Milaak Al-Taaweel and then it was split into two basic sections. In the first section, I dealt with Ibn Al-Zubayr's approach in his moral guidance of the verbs with convergent meanings. In the second, I have mentioned the verbal guidance method with which the verbs were tackled. In doing this, I have investigated all the verbs which is mentioned in similar verses in Al-Milak. This study is based on an analytical and equilibrium approach.

Results have revealed that that Ibn al-Zubayr may find the difference between the meaning of the acts through the use of the Koran. It may also be unique to some verbs.

Key words: Ibn Al-Zubayr Al-Garnatī - Milaak Al-Taaweel - Selecting Synonymous Verbs - Similar Quranic Verses

المقدمة:

فإن موضوع هذا البحث هو (منهج ابن الزبير الغرناطي في توجيه الفعلين المتقاربين في المعنى من خلال كتاب ملاك التأويل . دراسة تحليلية موازنة) وذلك نحو (انفجرت) و(انبجست)، (ألفينا) و(وجدنا)، (سرّحوهنّ) و(فارقوهنّ) وغيرها من الأفعال. إذ كان لابن الزبير وقفات على الآيات المتشابهة التي تضمنت هذه الأفعال ليبين سبب تخصيص كل آية بفعلها. وقد قمت في هذا البحث بدراسة هذه الأفعال من خلال عرض رأيه ومقارنته بالآراء الأخرى، إذ لم أقف على دراسة سابقة لكتاب (الملاك) أفردت هذا الموضوع بالبحث على الرغم من أهميته، وعلى الرغم من تعدد الأبحاث التي كتبت عن الملاك، وأذكر منها على سبيل المثال (دراسة المتشابه اللفظي من آي التنزيل في كتاب ملاك التأويل) وهي رسالة ماجستير للباحث محمد فاضل السامرائي، و(توجيه المتشابه اللفظي بين القدامى والمحدثين، أحمد الغرناطي وفاضل السامرائي: دراسة مقارنة) وهي رسالة دكتوراه للباحث محمد رجائي أحمد الجبالي، و(المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، دراسة مقارنة بين الإسكافي والغرناطي) وهي رسالة دكتوراه للباحث لبيب محمد جبران، و(البلاغة القرآنية في الآيات المتشابهات من خلال كتاب ملاك التأويل) للدكتور إبراهيم بن عبد العزيز الزيد.

ولم يكن العنوان (تعاور الفعلين المترادفين) لأنأى بنفسي عن الخلاف بين العلماء في وجود الترادف في القرآن الكريم، فقد ذكر محمد نور الدين المنجد ((أن الآراء والمواقف حول مسألة الترادف قد اختلفت بين المشتغلين بعلوم القرآن، فكان منها الإقرار بالترادف وإثباته، وكان منها كذلك إنكار وقوعه، وكان كل منهما على درجات متفاوتة وفي اتجاهات متباينة)) [(١)].

استهللت بحثي بتعريف موجز بابن الزبير وكتابه الملاك، ثم جعلت دراستي مرتكزة على مبحثين أساسيين: تناولت في الأول منهما منهج ابن الزبير في التوجيه المعنوي للأفعال المتقاربة في معانيها، وفي المبحث الثاني ذكرت منهجه في التوجيه اللفظي لها.

وطبيعة هذه الدراسة تحليلية موازنة، إذ قمت بجمع الأفعال المتقاربة المعنى في الملاك وتحليلها من خلال عرض رأي ابن الزبير في الآيتين ومقارنته بالآراء الأخرى التي وقفت عليها. وأود أن أشير إلى أني عُنيتُ في هذا البحث بدراسة الأفعال التي لا تقع فواصل الآيات؛ لأني رأيت أن الدراسات التي عنيت بتناول فواصل الآيات في القرآن قد تضمنت الأفعال المتقاربة في المعنى.

(١) المنجد: محمد نور الدين . **الترادف في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق** ١٠٩ . الطبعة الأولى . دار الفكر . سوريا . ١٩٩٧ . صفحة ١٠٩.

وسأعتمد الطبعة التي هي بتحقيق محمود كامل أحمد، وإذا اقتبست من الطبعة التي بتحقيق سعيد الفلاّح فسأشير إلى ذلك.

نسأل الله تعالى أن يجعل عملنا هذا خالصًا لوجهه الكريم، وألاّ يحرمنا أجر المجتهدين.

التعريف بابن الزبير:

هو أحمد بن إبراهيم بن الزبير بن محمد بن إبراهيم بن الحسن بن الحسين بن الزبير الثقفي أبو جعفر الغرناطي، عرف بنسبته إلى جده الأول وغلب ذلك عليه(١). ولد ببلدة جيان شرقي قرطبة سنة ٦٢٧هـ(٢). يقول صاحب الإحاطة: ((أصله من مدينة جيّان منزل قنّسرين من العرب الداخلين إلى الأندلس، ونسبه بها كبير، وحسبه أصيل، وثروته معروفة، خرج به أبوه عند تغلب العدو عليها عام ٩٤٣هـ ولأبيه إذ ذاك ثروة وجِدة أعانته على طلب العلم)) (٣).

ويفهم من هذا أنه انتقل من مسقط رأسه جيّان وعمره ست عشرة سنة تقريبًا، أي في سن البلوغ، وأنه نشأ في أسرة ثرية وكان لذلك الأثر الكبير في طلبه العلم.

وقد كان انتقاله إلى غرناطة مباشرة، وفيها نشأ وترعرع وطلب العلم، حتى غلبت عليه النسبة إليها فصار يعرف بابن الزبير الغرناطي. يقول السيوطي (ت ٩١١هـ): ((هو جيّاني المولد، غرناطيّ المنشأ)) (٤).

بدأ بطلب العلم قبل خروجه من جيّان، ثم انكبّ على العلم بعد ذهابه إلى غرناطة، وأخذ عنه عدد كبير من العلماء. جاء في (الدرر الكامنة): ((وجمع وصنّف وحدّث بالكثير، وبه تخرج العلاّمة أبو حيان، وصار علاّمة عصره في الحديث والقراءة)) (٥).

---

(١) ينظر المراكشي: أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري (ت٧٠٣هـ/١٣٠٣م) . **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة** . تحقيق الدكتور إحسان عباس وآخرين . الطبعة الأولى . دار الغرب الإسلامي . تونس ٢٠١٢م . ٢٣١/١.

(٢) ينظر ابن الخطيب: لسان الدين (ت ٧٧٦ هـ/١٣٧٤م) . **الإحاطة في أخبار غرناطة** . تحقيق الدكتور محمد عبد الله عنان . الطبعة الثانية . مكتبة الخانجي بالقاهرة . ١٣٩٣هـ . ١٩٧٣م . ١٩٣/١.

(٣) ينظر ابن الخطيب . **الإحاطة** ١٨٨/١.

(٤) السيوطي: جلال الدين (ت ٩١١هـ/١٣٧٤م) . **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة** . تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم . الطبعة الأولى . مطبعة عيسى البابي الحلبي . ١٣٨٤هـ . ١٩٦٤م . ٢٩١/١.

(٥) العسقلاني: ابن حجر (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٩م) . **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة** . تحقيق محمد سيد جاد الحق . دار الكتب الحديثة . ٨٤/١.

ويقول عنه تلميذه أبو حيان الأندلسي: ((كان محدّثًا جليلاً، ناقدًا، نحويًّا، أصوليًّا، فصيحًا، مفوّهًا، حسَنَ الخط، مقرئًا، مفسرًا، مؤرخًا، ناصحًا في الإقراء، خرج من مالقة ومن طلبته أربعة يُقرئون كتاب سيبويه)) [١]. ويقول عنه أيضًا: ((وكان يحرر اللغة، وكان أفصح عالم رأيتُه)) [٢].

ومن تصانيفه: ذيل على تاريخ ابن بشكوال، وتاريخ علماء الأندلس، والإعلام فيمن خُتم به القطر الأندلسي من الأعلام، والبرهان في ترتيب سور القرآن، وملاك التأويل[٣].

وقد كان مع هذا الفضل والنبل والعلم والغنى ((كثير الخشوع والخشية، مسترسل العبرة، صلبًا في الحق، شديدًا على أهل البدع، ملازمًا للسنة، جزلاً مهيبًا، معظمًا عند الخاصة والعامة، عذب الفكاهة، طيب المجالسة، حلو النادرة، يؤثر عنه حكايات لا تخلّ بوقار ولا تخلّ بجلال منصب)) [٤].

توفي في غرناطة في يوم الثلاثاء في الثامن من ربيع الأول سنة (٧٠٨ هـ) ثمان وسبعمائة للهجرة عن عمر يناهز الثمانين عامًا[٥].

التعريف بالكتاب:

اسم الكتاب هو (ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل). أما موضوعه فهو في توجيه المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، إذ أراد ابن الزبير أن يثبت أن كل آية وكل لفظة جاءت في المكان الذي يقتضيه سياق النص. وقد وضح الزركشي المقصود بالمتشابه اللفظي فقال: ((هو إيراد القصة الواحدة في صور شتى وفواصل مختلفة، ويكثر في إيراد القصص والأنباء، وحكمته التصرف في الكلام وإتيانه على ضروب ليُعلِمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك، مبتدأ به ومتكررًا)) [٦].

(١) السيوطي: **بغية الوعاة** ٢٩١/١.

(٢) الشوكاني: محمد بن علي (ت ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م) . **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع** . الطبعة الأولى . مطبعة السعادة بمصر . ١٣٨٤هـ . ٣٣/١.

(٣) االمراكشي: **الذيل والتكملة** ٢٣٦/١.

(٤) ابن الخطيب . **الإحاطة في أخبار غرناطة** ١٨٨/١.

(٥) ينظر ابن الخطيب . **الإحاطة** ١٩٢/١، السيوطي: **بغية الوعاة** ٢٩٢/١. وللتوسع في سيرته ينظر **(ملاك التأويل) التأويل)** بتحقيق سعيد الفلاّح فإن فيه دراسة مستوفية لحياته وعصره.

(٦) الزركشي: بدر الدين (ت ٧٩٤هـ/١٣٩٢م) . **البرهان في علوم القرآن** . تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم . الطبعة الأولى . دار إحياء الكتب العربية ١٣٧٦هـ . ١٩٥٧م . ١١٢/١.

ويقول في كلامه على من صنف في توجيه المتشابه اللفظي: ((وصنف في توجيهه الكرماني كتاب البرهان، والرازي درة التنزيل، وأبو جعفر بن الزبير وهو أبسطها في مجلدين)) [١].

ويقول السيوطي: ((وألّف في توجيهه الكرماني كتاب (البرهان في متشابه القرآن)، وأحسن منه (درة التنزيل وغرة التأويل) لأبي عبد الله الرازي، وأحسن من هذا (ملاك التأويل) لأبي جعفر بن الزبير))[٢].

وقد ذكر ابن الزبير الغرض من وضعه الكتاب، فذكر ثلاثة أسباب وهي ما يأتي:

السبب الأول: أن العلماء الأوائل أغفلوا الكتابة في المتشابه اللفظي في القرآن.

والسبب الثاني: أنه تصحيح لما يتبادر إلى الذهن من أن ليس هناك ترابط بين الآيات، وأنه لا مانع من أن تقع آية مكان آية تشبهها ولا يتأثر السياق.

والسبب الثالث: أن موضوع الكتاب لم يفرده أحد بالتأليف سوى صاحب كتاب (درة التنزيل) [٣].

وقد ذكر ابن حجر أن ابن الزبير ((نحا فيه طريق الحصكفي الخطيب في ذلك فلخّص كتابه وزاد عليه شيئًا بنفسه)) [٤].

والذي يبدو لي أن كتاب الملاك ليس تلخيصًا لكتاب الدرة، بل إنه اعتمد عين ما ذكره الخطيب واستدرك ما أغفله، أي إنه مكمل له. يقول ابن الزبير: ((وأبديت . بحول ربي . من مكنون خاطري إلى الظهور ما أثبتّه بعون الله وقوته في هذا المسطور، معتمدًا عين ما ذكره من الآيات، ومستدركًا ما تذكرته مما أغفله رحمه الله من أمثالها من المتشابهات برفع تلك الإشكالات وإبداء المعاني الخفيّات القاطعة بذوي البطالات))[٥]. بل إن أكثر آرائه في الملاك ليست في الدرة.

(١) الزركشي: **البرهان في علوم القرآن** ١/١١٢.

(٢) السيوطي: جلال الدين (ت ٩١١هـ/١٣٧٤م) . **الإتقان في علوم القرآن** . تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم . المكتبة العصرية للطباعة والنشر . بيروت ١٤٠٧هـ . ١٩٨٧م . ٣/٣٣٩.

(٣) ينظر الغرناطي: أحمد بن الزبير (ت ٧٠٨هـ/١٣٠٨م) . **ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل** . تحقيق محمود كامل أحمد . الطبعة الأولى . دار النهضة العربية . بيروت . لبنان . ١٤٠٥هـ . ١٩٨٥م . ١/٤ . ٥.

(٤) العسقلاني: ابن حجر . **الدرر الكامنة** ١/٨٤.

(٥) ينظر ابن الزبير . **ملاك التأويل** ١ / ٤ . ٥.

وهذا الكتاب يعدّ من أوفى وأبسط وأحسن ما أُلّف في مسائله ومباحثه كما ذكر سعيد الفلاّح[١]. ويقول الجبالي: إن كتاب الملاك ((يعَدّ المصنف الأكثر قبولاً والأوسع انتشارًا في باب المتشابه اللفظي في القرآن . . . إذ إنه تفوق على سابقيه [درة التنزيل للإسكافي]، و[البرهان للكرماني] في هذا الباب))[٢].

المبحث الأول: منهج ابن الزبير في التوجيه المعنوي:

عني ابن الزبير الغرناطي بالتوجيه المعنوي للأفعال التي تتقارب في معانيها في الآيات المتشابهة عناية كبيرة. وقد لاحظت في توجيهاته أنماطًا وصورًا مختلفة، فهو قد يدعم رأيه بما ينقله عن المفسرين من الفروق بين معاني الأفعال، وقد يذكر حكمًا نحويًّا يخص الفعلين قبل أن يشرع في التوجيه، وقد يهتدي إلى الفرق بين الفعلين من خلال الاستعمال القرآني لهما. وسنقف على الآيات التي ذكرها لعرض رأيه مع ما ذكره العلماء من آراء أخرى فيها.

أولاً: النقل عن المفسرين:

ذكرنا أن ابن الزبير قد يذكر معنى الفعلين ويستشهد على ذلك بما ينقله عن المفسرين. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً﴾ [البقرة:٦٠]، وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً﴾ [الأعراف:١٦٠] .

ذكر ابن الزبير أن الفعلين (انفجرت) و(انبجست) يجتمعان في المعنى العام، غير أنهما ليسا على حدّ سواء، بمعنى أنهما ليسا متطابقين في المعنى ((بل الانبجاس ابتداء الانفجار، والانفجار بعده غاية له))[٣].

وقد استدل على ذلك بما نقله عن المفسرَين الأندلسيين: أبي عبد الله الغزنوي القرطبي (ت ٦٧١هـ) وابن عطية الأندلسي (ت ٥٤١هـ)، إذ نقل عن القرطبي قوله: ((الانبجاس أول الانفجار))[٤]. وقد جاء في تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن): ((وفي الأعراف: انبجست،

(١) ينظر ابن الزبير . **ملاك التأويل** . تحقيق سعيد الفلاّح . الطبعة الأولى . دار الغرب الإسلامي . بيروت . ١٩٨٣م . ٥/١.

(٢) الجبالي: محمد رجائي . **توجيه المتشابه اللفظي في القرآن الكريم بين القدامى والمحدثين، أحمد الغرناطي وفاضل السامرائي: دراسة مقارنة** . رسالة دكتوراه . جامعة الملايا . كوالالمبور ٢٠١٢م . صفحة ٣.

(٣) ابن الزبير: **ملاك التأويل** ٦٧/١.

(٤) ابن الزبير: **ملاك التأويل** ٦٨/١ .

والانبجاس أضيق من الانفجار))[١]. وهذا قريب مما نقله ابن الزبير عنه، فخروج الماء يكون أوله ضيقًا ثم يتسع. ولعل هذا الرأي هو الذي عناه الآلوسي (ت ١٢٧٠هـ) بقوله: ((وقيل: بينهما فرق وهو أن الانبجاس أول خروج الماء، والانفجار اتساعه وكثرته)) [٢].

ونقل ابن الزبير عن ابن عطية قوله: ((انبجست: انفجرت، لكنه أخف من الانفجار))[٣]. ونجد هذا القول في تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز)، فقد جاء فيه: ((و(فانبجست) معناه انفجرت، إلا أن الانبجاس أخف من الانفجار)) [٤]. نلاحظ أنه فسّر الانبجاس بالانفجار ثم استدرك قائلاً: إنه أخف من الانفجار، إذ إن أول انفجار الماء انبجاس لأنه يخرج خفيفًا.

وعموم المفسرين يذكرون أن الكلمتين بمعنى واحد، فها هو الثعلبي (ت ٤٢٧هـ) ينقل عن أهل التفسير أن معنى ((انبجست وانفجرت واحد)) [٥]. وفي (تفسير الواحدي): ((بجس الماء، وانبجاسه: انفجاره . . . وانبجس وتبجس إذا تفجر))[٦]. وفي (تفسير الكشاف): ((فانبجست: فانفجرت، والمعنى واحد))[٧].

وعدم التفريق نجده عند تلميذه أبي حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، إذ ذكر ما قيل فيهما، فنقل رأي من ذكر أنهما مترادفان، كما نقل رأي من ذكر أن بينهما فرقًا وهو أن الانبجاس هو أول خروج الماء،

(١) القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٦٧١هـ/١٢٧٣م) . **الجامع لأحكام القرآن** . تحقيق عبد الله التركي . الطبعة الأولى . مؤسسة الرسالة . ١٤٢٧هـ . ٢٠٠٦م . ١٣٨/٢.

(٢) الآلوسي: شهاب الدين محمود (ت ١٢١٧هـ . ١٨٥٤م) . **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني** . دار إحياء التراث العربي . بيروت . ٢٧١/١.

(٣) ابن الزبير: **ملاك التأويل** ٦٨/١ .

(٤) الأندلسي: ابن عطية (ت ٥٤٢هـ/١١٤٨م) . **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز** . تحقيق الرحالة الفاروق وآخرين . الطبعة الثانية . وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في قطر . ١٤٢٨هـ . ٢٠٠٧م . ٢٢٦/١.

(٥) الثعلبي: أبو إسحاق أحمد بن محمد (ت ٤٢٧هـ/١٠٣٥م) . **الكشف والبيان** . تحقيق أبي محمد بن عاشور . الطبعة الأولى . دار إحياء التراث العربي . بيروت . لبنان . ١٤٢٢هـ . ٢٠٠٢م . ٢٩٥/٤.

(٦) الواحدي: الواحدي: أبو الحسن علي بن أحمد (ت ٤٨٦هـ/١٠٧٦م) . **الوسيط في تفسير القرآن المجيد** . تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وآخرين . الطبعة الأولى . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . ١٤١٥هـ . ١٩٩٤م . ٤١٩/٢.

(٧) الزمخشري: جار الله محمود بن عمر (ت ٥٣٨هـ/١١٤٤م) . **تفسير الكشاف** . تحقيق عادل أحمد عبد الموجود . الطبعة الأولى . مكتبة العبيكان . ١٤١٨هـ . ١٩٩٨م . ٥٢١/٢.

والانفجار اتساعه وكثرته، ليرجح بعد ذلك أن القرآن استعملهما ((بمعنى واحد؛ لأن الآيتين قصة واحدة)) [١].

هذا مع العلم أن من المفسرين من فرّق بينهما كالطبرسي (ت ٤٦٩هـ) والفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ) اللذين ذهبا إلى أن الانبجاس خروج الماء بقلة، والانفجار خروجه بكثرة[٢].

وكذلك المعاجم اللغوية التي وقفت عليها لم تفرق بين معنى الفعلين، إذ إنها فسّرت الانبجاس بالانفجار، جاء في (الصحاح): ((بجست الماء فانبجس، أي فجرته فانفجر))[٣]. وجاء في (أساس البلاغة): ((بجس: انبجس الماء من السحاب، والعين: انفجر، وتبجس: تفجر))[٤]. وجاء في (لسان العرب): ((وبجست الماء فانبجس، أي فجرته فانفجر . . . وانبجس الماء وتبجس، أي تفجر))[٥]. وجاء في (تاج العروس): ((وبجّسه الله تبجيسًا من السحاب والعين فانبجس وتبجّس: انفجر وتفجّر، قال الله تعالى: ﴿فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً﴾))[٦].

وفي المقابل نجد معجم (المفردات في غريب القرآن) للراغب الأصفهاني . وهو من معاجم المعاني ـ يبين الفرق بين معنى الفعلين، فقد جاء فيه: ((يقال: بجس الماء وانبجس: انفجر، لكن الانبجاس أكثر ما يقال فيما يخرج من شيء ضيق، والانفجار يستعمل فيه وفيما يخرج من شيء واسع))[٧].

---

(١) الأندلسي: أبو حيان (ت ٦٥٤هـ/١٣٤٤م) . **البحر المحيط** . تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وآخرين . الطبعة الأولى . دار الكتب العلمية . بيروت . ١٤١٣هـ . ١٩٩٣م . ٣٩٠/١.

(٢) ينظر الطبرسي: الفضل بن الحسن (ت ٥٤٨هـ/١١٥٤م) . **مجمع البيان في تفسير القرآن** . الطبعة الأولى . دار العلوم للنشر والتوزيع . بيروت . لبنان. ١٤٢٦هـ . ٢٠٠٥م . ٢٧٩/٤ ، والرازي: فخر الدين (٦٠٦هـ/١٢١٠م) . **تفسير الرازي** . الطبعة الأولى . دار الفكر . بيروت . لبنان . ١٤٠١هـ . ١٩٨١م.١٠٣/٣ ، ٣٦/١٥.

(٣) الجوهري: إسماعيل بن حماد (ت ٣٩٣هـ/١٠٠٣م) . **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية** . تحقيق أحمد عبد الغفور عطار . الطبعة الرابعة . دار العلم للملايين . بيروت . لبنان . ١٩٩٠م . ٩٠٧/٢. (مادة: بجس)

(٤) الزمخشري: جار الله محمود بن عمر (ت ٤٧٦هـ/١٠٧٤م) . **أساس البلاغة** . تحقيق محمد باسل عيون السود . الطبعة الأولى . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . ١٤١٩هـ . ١٩٩٨م . ٤٦/١. (مادة: بجس)

(٥) ابن منظور: محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ/١٣١١م) . **لسان العرب** . دار المعارف . مصر . ص ٢١٢ . (مادة: بجس)

(٦) الزبيدي: محمد المرتضى (ت ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م) . **تاج العروس من جواهر القاموس** . تحقيق عبد المجيد قطامش قطامش . الطبعة الأولى . المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب . الكويت . ١٤٢٢هـ . ٢٠٠١م . ٤٢٦/١٥ . (مادة: بجس)

(٧) الأصفهاني: الراغب (ت ٥٠٢هـ/١١٠٨م) . **المفردات في غريب القرآن** . الطبعة الثانية دار المعرفة . بيروت . لبنان ١٤٢٠هـ . ١٩٩٩م. ص٤٧.

أما الخليل بن أحمد الفراهيدي فقد اكتفى بذكر معنى الانبجاس فقال: ((البجس: انشقاق في قربة أو حجر أو أرض ينبع منه الماء، فإن لم ينبع فليس بانبجاس)) [(١)].

وقد اعتمد ابن الزبير ما قيل في الفرق بين معنييهما في بيانه سبب تخصيص كل آية بفعلها فقال: إن موسى في آية البقرة هو الذي طلب السقيا من ربه، قال تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ فناسب إجابته انفجار الماء. في حين ذكر في الأعراف أن قومه هم الذين استسقوا موسى، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾ فقيل جوابًا لطلبهم: (فانبجست)[(٢)].

وذهب الكرماني (ت٥٠٥هـ) إلى أنه قال في آية البقرة: ﴿كُلُواْ وَاشْرَبُواْ﴾ فجمع بين الأكل والشرب، ولم يرد في الأعراف ذكر الشرب، وإنما قال: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ فناسب ذكر الانفجار الآية التي فيها الأمر بالشرب، وناسب ذكر الانبجاس الآية التي لم يرد فيها الأمر بالشرب[(٣)]. ونجد التفريق التفريق نفسه عند زكريا الأنصاري (ت ٩٢٦هـ)[(٤)].

ويمكنني أن أضيف سببًا آخر، وهو أن الأمر في آية البقرة كان بالقول ﴿فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ أي أن الله تعالى هو الذي قال لموسى: اضرب بعصاك الحجر. أما في آية الأعراف فقد كان الأمر بالإيحاء ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ ولا شك أن الأمر بالقول أقوى من الأمر بالإيحاء، فناسب القول الانفجار، وناسب الإيحاء الانبجاس والله أعلم.

ثانيًا: بيان الحكم النحوي:

قد يذكر ابن الزبير الحكم النحوي للفعلين قبل أن يشرع في توجيه الآيتين اللتين تتضمنهما، كما نرى ذلك في بيانه الفرق بين الفعلين (ألفى) و(وجد)، وذلك في أثناء كلامه على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا﴾ [البقرة:١٧٠]، وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا﴾ [لقمان: ٢١]، فهو يقول: (((ألفى) بمعنى

(١) الفراهيدي: الخليل بن أحمد (١٧٥هـ /٧٨٦م) . **كتاب العين** . تحقيق الدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي . دار الرشيد للنشر. ٥٨/٦ (مادة: بجس).

(٢) ينظر ابن الزبير: **ملاك التأويل** ٦٨/١.

(٣) ينظر الكرماني: محمود بن حمزة (ت٥٠٥هـ/١١١٠م) . **البرهان في متشابه القرآن** . تحقيق عبد القادر أحمد عطا . عطا . دار الفضيلة . ٧٤.

(٤) الأنصاري: أبو يحيى زكريا (ت ٩٢٦هـ/١٨٦١م) . **فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن** . تحقيق محمد علي الصابوني . الطبعة الأولى . دار القرآن الكريم . بيروت . لبنان . ١٤٠٣هـ . ١٩٨٣م . ص ٢٨.

(وجد) التي في قولهم: (وجدت الضالة) فتتعدى إلى واحد، ولا يقال: (ألفى) بمعنى (وجد) التي بمعنى (علم) متعديًا إلى اثنين، وما يقع منتصبًا بعد مفعوله في مثل قولك: (ألفيت زيدًا عالمًا) فإنما انتصابه على الحال، بدليل أنه لا يوجد إلا نكرة، فـ(وجد) لفظ مشترك بمعنى العلم، وبمعنى العثور على الشيء الذي هو الوجدان، تقول من هذا: (وجدت الضالة) أي عثرت عليها))[١]. وعلى هذا يكون (ألفى) بمعنى أصاب وصادف[٢].

وقد ذهب تلميذه أبو حيان المذهب نفسه فقال: إن (ألفى) ((ليست هنا متعدية إلى اثنين؛ لأنها بمعنى (وجد) التي بمعنى (أصاب)))[٣].

إنه من المعلوم أن النحاة اختلفوا في تعدية الفعل (ألفى)، فمنهم من ذهب إلى أنه يتعدى إلى مفعولين، ومنهم من ذهب إلى أنه يتعدى إلى مفعول واحد، والثاني منصوب على الحال[٤]. وقد ذهب ابن الزبير المذهب الثاني كما رأينا.

وبعد أن عرض رأيه في (ألفى) بيّن سبب تخصيص كل آية بفعلها فقال: ((إنه قد تقدم قبل آية البقرة قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [١٦٨] ، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [١٦٩] وخطوات الشيطان وأمره أهواء مضللة، وذلك كله في طرف نقيض من مقتضى العلم. وحصل من هذا أن الشيطان هو الذي يأمرهم ويدعوهم إلى أن يقولوا على الله ما لا يعلمون، فحصل من هذا أنه لا علم عندهم ولا توهُّمَ علم، وأنهم اعتمدوا اتباع آبائهم فيما يأمر به الشيطان، فناسب هذا قولهم: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا﴾، لأن ما ألفوا عليه آباءهم وجدان لا علم معه حاصلاً ولا متوهَّمًا، فناسب جوابهم ما عليه حالهم وما هم عليه.

ولما تقدم في سورة لقمان قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [٢٠] فحصل ذكر العلم وإن كان منفيًّا، ولأن جدالهم ينبئ أنهم توهموا أن ذلك علم وأنهم على شيء، فقد حصل من مجادلتهم أنهم يظنون أنهم على علم . . . ولا يجادل إلا متعلق بشبهة يظن أنها

---

(١) ابن الزبير: **ملاك التأويل** ١٠٣/١.

(٢) ينظر الأندلسي: أبو حيان (ت ٦٥٤هـ/١٣٤٤م) . **التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل** . تحقيق حسن هنداوي . الطبعة الأولى . دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع . السعودية . الرياض . ١٤٢٦هـ . ٢٠٠٥م . ٢٦/٦.

(٣) الأندلسي: أبو حيان . **البحر المحيط** ٦٥٥/١.

(٤) ينظر أبو حيان: **التذييل والتكميل** ٢٩/٦.

علم، فناسبه قوله تعالى مخبرًا عنهم: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا﴾ لاشتراك لفظ (وجد) إذ يكون بمعنى العلم)) [1].

والذي يبدو لي أنه لا رابط بين هذا التوجيه وبين كون الفعل (ألفى) متعديًا إلى مفعول أو مفعولين. وقد كان يفترض أن يبين ابن الزبير الفرق بين الفعلين (ألفى) و(وجد) في الاستعمال القرآني ثم يبيّن سبب التخصيص. ثم إن توجيهه آية البقرة يكتنفه شيء من التكلف فيما أرى، إذ إن قوله: ((لأن ما ألفوا عليه آباءهم وجدان لا علم معه حاصلاً ولا متوهَّمًا)) يمكن أن ينطبق على آية لقمان كذلك، وذلك بأن نبدل بالفعل(ألفينا) الفعل (وجدنا).

وقد كان رأي علماء المتشابه اللفظي أكثر وضوحًا، إذ قالوا: إن الفعل (ألفى) يتعدى إلى مفعولين دائمًا، والفعل (وجد) يتعدى مرة إلى مفعول واحد، ومرة إلى مفعولين، فهو مشترك، و(ألفى) خاص، فكان الموطن الأول . وهو سورة البقرة . أنسب بالخاص؛ لأن غيره إذا وقع موقعه في الموطن الثاني علم أنه بمعناه، ولذا فالمشترك أولى بالتأخير إلى الموطن الثاني[2].

إن الفعل (ألفى) لم يرد في القرآن إلا فيما هو مشاهد، ولذا لم يلحقه بعض النحاة بأفعال القلوب، وإنما جعلوه في الأفعال المحسوسة وذلك نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءهُمْ ضَالِّينَ﴾ [الصافات:٦٩]، وقوله: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾ [يوسف:٢٥].

أما الفعل (وجد) فقد ورد في القرآن فيما هو قلبي وغير قلبي (أي حسي) ، فمن أمثلة وروده غير قلبي قوله تعالى: ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً﴾ [آل عمران:٣٧] ، ومن أمثلة وروده قلبيًّا قوله سبحانه: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ [النساء:١١٠] .

ولكن يبقى السؤال: هل هناك فرق بين معنى الفعلين (ألفى) و(وجد) ؟

إن ما وقفت عليه من المعاجم اللغوية قديمها وحديثها ذهبت إلى أنهما بمعنى واحد. جاء في (لسان العرب): ((وألفى الشيء: وجده))[3]. وجاء في (تاج العروس): ((وألفاه كاذبًا: وجده كذلك، وقوله تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾ أي وجداه))[4]. وجاء في (المعجم الوسيط): ((ألفاه: وجده

(١) ابن الزبير: **ملاك التأويل** ١٠٤/١.
(٢) ينظر الإسكافي: الخطيب (ت ٤٢٠هـ/١٠٢٩م) . **درة التنزيل وغرة التأويل** . الطبعة الأولى . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . ١٤١٦هـ . ١٩٩٥م . ص٢١ . ٢٢ ، والكرماني: **البرهان** ٨٠، والأنصاري: **فتح الرحمن** ٤٨ . ٤٩.
(٣) ابن منظور: **لسان العرب** ٤٠٥٦. (مادة: لفو)
(٤) الزبيدي: **تاج العروس** ٤٧١/٣٩. (مادة: لفو)

وصادفه)) [١]. وجاء في (المفردات في غريب القرآن): ((ألفيتُ: وجدتُ، قال تعالى: ﴿قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا﴾)) [٢].

وكذلك فإن بعض كتب التفسير ذهبت هذا المذهب، فقد جاء في (الكشاف): ((و(ألفينا) بمعنى (وجدنا)، بدليل قوله: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا﴾)) [٣]. وجاء في (تفسير الرازي): ((و(ألفينا) بمعنى (وجدنا) بدليل قوله في آية أخرى: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا﴾ ويدل عليه أيضًا قوله تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾ وقوله: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءهُمْ ضَالِّينَ﴾)) [٤].

وقد يكون هذا سبب عدم اهتداء عائشة بنت الشاطئ إلى الفرق بين معنييهما؛ إذ تقول: ((ولا بد أن يكون لهذه الفروق الاستعمالية بين (وجد) و(ألفى) في البيان القرآني وفي اللغة ملحظ من فرق الدلالة لم أهتدِ إليه، أو لعلهما من اختلاف اللغات، وإن لم أجد فيه نصًّا والله أعلم))[٥].

ولعل فاضلاً السامرائي قد اهتدى إلى الفرق بين معنييهما فقال: إن القرآن الكريم يستعمل الفعل (ألفى) في حالة الذم الأشد، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٧٠] فنفى عنهم العقل.

في حين قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة:١٠٤] فنفى عنهم العلم، ولا شك أن نفي العقل أشد ذمًّا من نفي العلم والاهتداء[٦].

ويرى السامرائي أنه تعالى قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان:٢١] باستعمال الفعل (وجد)، وذلك أن

(١) مجمع اللغة العربية . **المعجم الوسيط** . مكتبة الشروق الدولية . الطبعة الرابعة ١٤٢٥هـ . ٢٠٠٤م . ص ٨٣٣. (مادة: لفو)

(٢) الأصفهاني: **المفردات في غريب القرآن** . ص٤٧٦,

(٣) الزمخشري: **الكشاف** ٣٥٦/١.

(٤) الرازي: **تفسير الرازي** ٧٠٦/٥.

(٥) بنت الشاطئ: عائشة عبد الرحمن (ت ١٤١٩هـ/١٩٩٨م) . **الإعجاز البياني للقرآن** . الطبعة الثالثة . دار المعارف . ١٤٠٤هـ . ١٩٨٤م . ص٣٨٧.

(٦) السامرائي: فاضل صالح: **برنامج لمسات بيانية** . قناة الشارقة الفضائية.

الشيطان لا يدعو إلا من كان له عقل، وعلى هذا فالذم في آية لقمان أقل منه في آية البقرة، ولذا استعمل الفعل (وجد) [١].

أما مشهور مشاهرة فيوجّه الآيتين توجيهًا آخر فيقول: ((إن الفريق المخاطب في سورة البقرة يتصف بالجهل والتغرير . . . وهذا كله يناسبه (ألفى) التي هي بمعنى العثور على الشيء، الذي هو الوجدان . . . وليس العلم.

وفيها معنى آخر يُفهَم من السياق أيضًا، وهو ثقتهم واتكالهم على غيرهم من الرؤساء والزعماء والآباء أكثر من اعتمادهم على أنفسهم، فهم منقادون لا رأي لهم.

وأما الخطاب الذي في سورة لقمان فهو لفريق من الناس يكابر ويعاند، وذلك على الرغم من إمكانية استخدامهم لعقلهم لو أرادوا ذلك، وهذا يناسبه (وجد) التي هي بمعنى العلم وليس العثور على الشيء))[٢].

ويتوصل من هذا التوجيه إلى أن الفعل (ألفى) في القرآن يؤتى به ((في سياق المكر والخديعة ومحاولة الإيقاع بالآخرين، وعدم استخدام العقل على الوجه الذي خُلق من أجله))[٣].

ونجد مصداق كلامه في قوله تعالى: ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءاً إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [يوسف:٢٥] إذ نرى أن امرأة العزيز قد استعملت عقلها فيما فيه ضرر وإيقاع بيوسف عليه السلام، وفي قوله تعالى كذلك: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءهُمْ ضَالِّينَ . فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات:٦٩ . ٧٠] ، والمعنى: أنهم وجدوهم على الضلالة فاقتدوا بهم. فـ((إنهم عريقون في الضلالة، وهم في الوقت ذاته مقلدون لا يفكرون ولا يتدبرون، بل يطيرون معجلين يقْفون خطى آبائهم الضالين غير ناظرين ولا متعقلين))[٤]. وهكذا رأينا أن لكل فعل معناه واستعماله، ولا يصح استبدال أحدهما بالآخر.

(١) السامرائي: فاضل . **برنامج لمسات بيانية** . قناة الشارقة الفضائية.
(٢) مشاهرة: مشهور . **المتشابه اللفظي في القرآن الكريم دراسة نقدية بلاغية** . الطبعة الأولى . عالم الكتب الحديث . الأردن . ١٤٣١هـ . ٢٠١٠م . ص ١٥٨.
(٣) مشاهرة: **المتشابه اللفظي في القرآن الكريم دراسة نقدية بلاغية** . ص ١٥٨.
(٤) قطب: سيد (ت١٣٨٦هـ ١٩٦٦م) . **في ظلال القرآن** . الطبعة الثانية والثلاثون . دار الشروق . ١٤٢٣هـ . ٢٠٠٣م. ٢٠٠٣م. ٢٩٩١/٥.

ثالثًا: ذكره الفرق بين معنى الفعلين من خلال الاستعمال القرآني لهما:

وهذا هو الأكثر في توجيه ابن الزبير للأفعال المتقاربة في المعنى، إذ إنه يمهد لذلك بذكر الفرق بين معنى الفعلين من خلال الاستعمال القرآني لهما وليس بحسب الفرق اللغوي بينهما. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً﴾ [الكهف: ٣٦]، وقوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى﴾ [فصلت:٥٠] إذ خصت آية الكهف بالفعل: (رددت)، وآية فصلت بالفعل: (رجعت).

يذكر ابن الزبير الفرق بين الفعلين (ردّ) و(رجع) في الاستعمال القرآني فيقول: إن الفعل (ردّ) يحتمل من القهر والتعنيف أكثر مما يحتمله الفعل (رجع)، فـ((إذا قلت منه: رجعته، أو رجع فإنه لا يحتمل ولا يفهم من معنى القهر والتعنيف ما يحتمله (ردّه)، ألا ترى وروده في مثل قوله: ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً﴾[الكهف: ٨٧]، وقوله: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [التوبة: ٩٤]. . . أما (رجع) وما تصرف منه فقلما يرد في هذا المعنى، وإن ورد فليس ككثرة (ردّ). فأما قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ﴾ فهذا عامّ للمؤمن والكافر وإن كان أظهر في المؤمن فلا معنى تعنيفٍ فيه)) [(١)].

ويبدو أن ما ذكره ليس المعنى اللغوي للفعلين، وإنما هو من خصوصيات التعبير القرآني، إذ إن المعاجم اللغوية ذكرت أن الرد بمعنى الرجوع. جاء في (لسان العرب): ((الردّ: صرف الشيء ورجعه))[(٢)]. وجاء في (القاموس المحيط): ((والارتداد: الرجوع))[(٣)]. وجاء في (المصباح المنير): ((ورددت إليه جوابه: أي رجعت وأرسلت، ومنه (رددت عليه الوديعة)، و(رددته إلى منزله)))[(٤)].

وقد بنى ابن الزبير سبب التخصيص على الفرق الذي ذكره فقال: إن المذكور في آية الكهف أبعد عن الإيمان من المذكور في آية فصلت، إذ إن آية فصلت صالحة لاتصاف المؤمن والكافر، فآية الكهف لا يكاد شيء من كلمها يجري في وصف المؤمن، قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً. وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾[٣٥ . ٣٦] ثم حكم لنفسه بعد إنكاره البعث

(١) ابن الزبير: **ملاك التأويل** ٦٤٦/٢ . ٦٤٧.

(٢) ابن منظور: **لسان العرب** ١٦٢١ . (مادة: ردد)

(٣) الفيروزابادي: مجد الدين (ت ٨١٧هـ/١٤١٥م) . **القاموس المحيط** . الطبعة الثالثة . المطبعة المصرية . ١٣٥٣هـ . ١٩٣٥م . ٢٩٤/١. (مادة: ردد)

(٤) الفيومي: أحمد بن محمد (ت ٧٧٠هـ/١٣٦٨م) . **المصباح المنير** . مكتبة لبنان . بيروت ١٩٨٧م. ص٨٥ . ٨٦. (مادة: ردد)

باستحقاق ما عجل له من جعل الجنتين كما وُصفتا فقال: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً﴾.

وهذه الحال ليست كحال ما هو مذكور في فصلت، فإن المذكور في فصلت قوله: ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاء الْخَيْرِ﴾ [٤٩] وهذه الصفة توجد في المؤمنين أيضًا، ثم قال: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى﴾ وليس هذا القول موازيًا للقول المذكور في الكهف ﴿لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً﴾ فناسب ذلك قوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ﴾ لأنه لا معنى للتعنيف فيه[١].

أما الكرماني (ت ٥٠٥هـ) فيرى أن الرد عن الشيء يتضمن كراهية المردود، بخلاف الرجع ((ولما كان في الكهف تقديره: ولئن رددت عن جنتي هذه التي أظن ألاّ تبيد أبدًا إلى ربي، كان لفظ الرد الذي يتضمن الكراهة أوْلى، وليس في (حم) [٢] ما يدل على الكراهة، فذكر بلفظ الرجع ليقع في كل سورة ما يليق بها)) [٣]. وإلى نحو هذا ذهب بدر الدين بن جماعة (ت ٧٣٣هـ)[٤].

ويوضح فاضل السامرائي كيف أن مجيء الرد في القرآن الكريم في الأمور المستكرهة، بخلاف الرجع، فيقول: ((استعمل القرآن الفعل (ردّ) . في الغالب . للأمور الثقيلة والمستكرهة، سواء كان ذلك في الرد عما هو فيه من حال إلى غيره، أي كراهية ترك ما هو فيه إلى غيره؛ لأن ما هو فيه محبوب لديه وتركه ثقيل عليه، أو يكون الرد عائدًا على مآل الشخص المردود ومصيره، فإن كان مصيره ومآله ثقيلاً مستكرهًا شديدًا عليه استعمل له (ردّ). أما (رجع) فيستعمله في الغالب لما هو أخف وأيسر))[٥].

ويضرب على ذلك أمثلة من الاستعمال القرآني للفعلين، فمن استعماله للفعل (ردّ) قوله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لاَّ تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٩٤] وهذه الآية في المنافقين، وردّ المنافقين إلى الله ردّ ثقيل عليهم شديد.

(١) ينظر ابن الزبير: **ملاك التأويل** ٦٤٥/٢ . ٦٤٦.
(٢) أي فصلت.
(٣) الكرماني: **البرهان** ١٦٩ .
(٤) ينظر ابن جماعة: بدر الدين (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٣م) . **كشف المعاني في المتشابه من المثاني** . تحقيق عبد الجواد خلف . الطبعة الأولى . دار الوفاء للنشر والتوزيع . المنصورة . ١٤١٠هـ . ١٩٩٠م . ص ٢٤٠.
(٥) السامرائي: فاضل . **من أسرار البيان القرآني** . الطبعة الثالثة . دار الفكر . عمان . الأردن . ١٤٣٣هـ . ٢٠١٢م . ص ٤٧.

ومن ذلك قوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ . قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة:٦ . ٨] وهذه الآية في اليهود، وردّ اليهود إلى ربهم ردّ ثقيل شديد.

واستعمل الفعل (يرجع) في المؤمنين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . . . وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٨ . ٢٨١]. وقال: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣ . ٦٤]

ثم وجّه الآيتين بناء على هذا الفرق فقال: إن ((آية الكهف وقعت في سياق حوار بين مؤمن وكافر مشرك ، فقد جاء فيها أن المشرك ﴿دَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً. وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً. قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً. لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً﴾ [الكهف: ٣٥ . ٣٨]

أما سياق الآيات في فصلت فهو في الإنسان عمومًا. قال تعالى: ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاء الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ. وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٤٩ . ٥٠]

فاستعمل (رددت) الثقيلة مع المشرك المعاند؛ لأنه يستثقل ترك ما هو فيه من نعمة وغضارة عيش، كما أن مآله إلى وبال، وعاقبته وخيمة.

واستعمل (رجعت) للإنسان عمومًا، وهو أقل كفرًا من هذا المشرك المحاور، فجاء بما هو أيسر وأخف))[1].

نلاحظ مما سبق أن العلماء بينوا الفرق بين الفعلين من خلال الاستعمال القرآني لهما، أما من ناحية اللغة فالفعلان بمعنى واحد.

(١) السامرائي: فاضل . **من أسرار البيان القرآني** ٥١.

ويوجههما أحمد رجائي توجيهًا آخر فيقول: ((تعالوا نتأمل جواب الشرط في كلتا الآيتين . . . إن جواب الشرط في الكهف ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً﴾، في حين أن جواب الشرط في فصلت ﴿إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى﴾ وبالتأمل نجد أن:

. جواب الشرط في الكهف جملة فعلية فعلها مضارع، كما نجد أن المتكلم [الكافر] يتوقع وينتظر خير المنقلب.

ـ جواب الشرط في فصلت جملة اسمية، وقد توقع المتكلم [الكافر] أنه له الحسنى تنتظره في الآخرة))[١].

وهذا التوجيه فيه نظر، فإن الجواب في كلتا الآيتين هو جواب القسم وليس جواب الشرط كما ذكر رجائي؛ لأنه إذا اجتمع شرط وقسم حذف جواب المتأخر منهما لدلالة جواب الأول عليه، كقولك: (والله إن قام زيد ليقومنَّ عمرو). قال ابن مالك:

واحذفْ لدى اجتماعِ شرطٍ وقسمْ جوابَ ما أخرتَ فهو ملتزَمْ[٢]

وقد اجتمع في قوله: (ولئن) في الآيتين اللام الموطئة للقسم و(إنْ) الشرطية، والسابق اللام، ولذا فالجواب في قوله: ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً﴾ وفي قوله: ﴿إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى﴾ لام القسم وليس لـ(إنْ) الشرطية كما ذكر رجائي.

ومن أمثلة ذلك أيضًا الفعلان (خلقَ) و(جعلَ)، إذ ذكر أصحاب المعاجم التي وقفت عليها أن الجعل يأتي بمعنى الخلق والإيجاد، جاء في (تاج العروس): ((ويكون بمعنى الخلق والإيجاد فيتعدى إلى مفعول واحد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ أي خلقهما))[٣]. وجاء في (لسان العرب): ((وجعل: خلق))[٤]. وجاء في (أساس البلاغة): ((جعل الظلمات والنور: خلقهما))[٥].

لكنّ ابن الزبير فرّق بينهما في الاستعمال القرآني فقال: ((ولا يرد في الكتاب العزيز لفظ (جعل) في الأكثر مرادًا به الخلق إلا حيث يكون قبله ما يكون عنه الجعل أو منه أو سببًا فيه محسوسًا عنه

(١) رجائي: **توجيه المتشابه اللفظي في القرآن الكريم بين القدامى والمحدثين** ٤٠٠.
(٢) ينظر ابن عقيل: بهاء الدين (ت ٧٦٩هـ/١٣٦٧م) . **شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك** . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . مكتبة دار التراث . ١٤٢٦هـ . ٢٠٠٥م . ٣٥/٤.
(٣) الزبيدي: **تاج العروس** ٢٥١/٢٥ (مادة جعل).
(٤) ابن منظور: **لسان العرب** ٦٣٧ (مادة جعل).
(٥) الزمخشري: **أساس البلاغة** ٢٥١/٢٥ (مادة جعل).

يكون ذلك المخلوق الثاني، بخلاف (خلق) فإن العبارة تقع كثيرًا به عما لم يتقدم وجوده وجودٌ مغايرٌ يكون عنه هذا الثاني)) [١].

ويضرب على ذلك مثالاً قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، فقد ذكر أن سبب استعمال الجعل مع الظلمات والنور أن الظلمات والنور ترتبط بأجرام توجد بوجودها وتعدم بعدمها، أما استعمال الخلق مع السماوات والأرض فسببه أنها لا ترتبط بموجود حادث توجد بوجوده وتعدم بعدمه[٢].

وقد سبقه الزمخشري إلى هذا التفريق، إذ قال: ((إن الخلق فيه معنى التقدير، وفي الجعل معنى التضمين، كإنشاء شيء من شيء، أي تصيير شيء شيئًا أو نقله من مكان إلى مكان، ومن ذلك ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ لأن الظلمات من الأجرام المتكاثفة))[٣].

ويتضح هذا في قولنا: (خُلِق البحرُ أجاجًا) و(جُعِل الماءُ عذبًا بعد أن كان أجاجًا)، إذ يُفهَم من العبارة الأولى أن البحر أجاج ابتداء، ومن الثانية أن الماء كان أجاجًا ثم صار عذبًا.

بعد ذلك كله يذكر ابن الزبير آيتين متشابهتين ذكر في إحداهما الفعل (خلق)، وفي الأخرى الفعل (جعل) وهما قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء:١]، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]. بذكر الخلق في آية النساء، والجعل في آية الأعراف.

ويبيّن سبب تخصيص كل آية بفعلها فيقول: إن المقصود من آية النساء التعريف بأولية الخلق، فهي في آدم وحواء، ولذا كان من المناسب استعمال الفعل (خلق). أما آية الأعراف فقد قصد فيها معنى السكن الذي جعله الله من آياته ونعَمه، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ فكانت (جعل) أوقع في هذا الغرض[٤].

ويبين فاضل السامرائي سبب تخصيص آية الأعراف بالجعل فيقول: إن آية الأعراف ذكرت ما بعد ذلك من بني آدم، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ . فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف:١٨٩ . ١٩٠]

(١) ابن الزبير: **ملاك التأويل** ١٨٦/١ . ١٨٧.

(٢) ينظر ابن الزبير: **ملاك التأويل** ١٨٧/١.

(٣) الزمخشري: **تفسير الكشاف** ٣٢٠/٢.

(٤) ينظر ابن الزبير: **ملاك التأويل** ١٨٧/١ . ١٨٨.

فمن الواضح أنها ليست في آدم وحواء، وإنما هي في ذريتهما بدليل قوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ . . . فَتَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فإنه لا يصح أن يقال في آدم وحواء: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا﴾. ولذا كان من المناسب استعمال الجعل(١).

ومن الأمثلة على ذلك أيضًا ما ذكره ابن الزبير من قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] بذكر الفعل (سارعوا).

وقوله: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاء وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد: ٢١] بذكر الفعل (سابقوا).

ذكرت المعاجم اللغوية التي وقفت عليها أن السرعة نقيض البطء، والمسارعة: المبادرة(٢). أما السبق فهو القُدْمة في الجري وفي كل شيء(٣).

أما كتب التفسير فقد فسّر كثير منها (سابقوا) بـ(سارعوا) دون أن تشير إلى فرق بين معنى الفعلين(٤).

لكن ابن الزبير فرّق بينهما فقال: إن المسارعة إلى الشيء قبل مسابقته، واستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١] فذكر في الآية المسارعة ثم المسابقة.

وهذا هو الحاصل فيما نراه، إذ لا يحصل السباق دون الإسراع، إذ يكون الإسراع أولاً ثم السباق.

(١) ينظر السامرائي: فاضل . **أسئلة بيانية في القرآن الكريم** . الطبعة الثالثة . دار ابن كثير . سوريا . دمشق . ١٤٣٧هـ . ٢٠١٦م . ٤٨/٢ . ٤٩. **٤٨/٢ . ٤٩.**

(٢) ابن منظور: **لسان العرب** ١٩٩٤، **والمعجم الوسيط** ٤٥٧ (مادة: سرع).

(٣) ابن منظور: **لسان العرب** ١٩٢٨ (مادة: سبق).

(٤) ينظر الثعلبي: **الكشف والبيان** ٢٤٤/٩، والبغوي: أبو محمد (ت ٥١٠هـ/١١١٧م) . **معالم التنزيل المعروف بـ(تفسير البغوي)** . تحقيق محمد عبد الله النمر وصاحبيه . دار طيبة للنشر والتوزيع . الرياض ١٤٠٩هـ . ٤٠/٨ ، والبيضاوي: ناصر الدين عبد الله بن عمر . **أنوار التنزيل وأسرار التأويل** . تقديم محمد عبد الرحمن المرعشلي (ت ٦٩١هـ/١٢٩٢م) . الطبعة الأولى . دار إحياء التراث العربي . بيروت، ١٨٩/٥، والزمخشري: **تفسير الكشاف** ٥٠/٦ ، والقرطبي: **الجامع لأحكام القرآن** ٢٦٢/٣٠.

ثم يبين سبب تخصيص كل آية بفعلها فيقول: لما كان الأمر كذلك قدّم (سارعوا) في آية آل عمران المذكورة أولاً في الترتيب المصحفي، وأخّر (سابقوا) في آية الحديد المتأخرة في الترتيب، وذلك لبناء المسابقة على المسارعة(١).

وهناك سبب آخر للتخصيص وهو ((أنه لما ذكر الجنة بأوسع صفة لها وذكر كثرة الخلق الداخلين فيها وذكر فضله العظيم على عباده قال: (سابقوا) وفي الآية الأخرى قال: (سارعوا) وذلك لأن كثرة الخلق المتوجهين إلى مكان ما تستدعي المسابقة إليه لا مجرد المسارعة)) (٢).

رابعًا: الشروع في التوجيه من دون تمهيد:

قد يشرع ابن الزبير في بيان سبب التخصيص من دون تمهيد كما نرى ذلك في بيانه الفرق بين الفعلين (سرحوهنّ) و(فارقوهنّ) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة:٢٣١]، وقوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق:٢].

لقد شرع ابن الزبير في توجيه الآيتين ولم يمهّد لهما كما رأينا ذلك في الآيات التي سبق ذكرها فقال: ((إن آية البقرة اكتنفها النهي عن مضارة النساء وتحريم أخذ شيء منهنّ، ما لم يكن منهنّ ما يسوّغ ذلك من ألاّ يقيما حدود الله، فلما اكتنفها ما ذكر، وأتبع ذلك بالمنع عن عضلهن . . . لم يكن ليناسب ما قصد من هذا أن يعبر بلفظ (أو فارقوهن) لأن لفظ الفراق أقرب إلى الإساءة منه إلى الإحسان، فعدل إلى ما يحصل منه المقصود مع تحسين العبارة وهو لفظ التسريح، قال تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ وليجري مع ما تقدم من قوله تعالى: ﴿الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ . . . وقد روعي في هذه الآي كلها مقصد التلطف وتحسين الحال في الصحبة والافتراق.

ولما لم يكن في سورة الطلاق تعرّض لعضل ولا ذكر لمضارّة لم ينكر ورود التعبير بلفظ ﴿أو فارقوهنّ﴾ عن الانفصال، ووقع الاكتفاء فيما يراد من المجاملة في الحالين بقوله: (بمعروف))) (٣).

والجدير بالذكر أني لم أقف على لغوي أو مفسر أو من هو معنيّ بتوجيه المتشابه اللفظي في القرآن وقف على هاتين الآيتين وبيّن سبب تخصيص كل آية بفعلها غير ابن الزبير الغرناطي.

(١) ينظر ابن الزبير: **ملاك التأويل** ١/١٧١ . ١٧٢.

(٢) السامرائي: فاضل . **التعبير القرآني** . دار ابن كثير . سوريا . دمشق . الطبعة الثانية ١٤٣٧هـ . ٢٠١٦م. ص٥٤.

(٣) ابن الزبير: **ملاك التأويل** ١/١٢٤ . ١٢٥.

ويبقى السؤال: هل هناك فرق بين التسريح والفراق؟

ذكر بعض أصحاب المعاجم أن تسريح المرأة بمعنى تطليقها. جاء في (الصحاح): ((وتسريح المرأة: تطليقها)) (١). وجاء في (المصباح المنير): ((سرّحت المرأة إذا طلقتها))(٢). وجاء في (تاج العروس): ((وتسريح المرأة: تطليقها . . . وسمى الله عز وجل الطلاق سراحًا فقال: ﴿ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ﴾ [الأحزاب: ٤٩] كما سماه طلاقًا من طلّق المرأة، وسماه الفراق)) (٣).

كما أن هناك من فسّر الفراق في آية الطلاق بالتسريح، جاء في (البحر المحيط): ((﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي سرحوهنّ بإحسان)) (٤).

إن معاني (سرّح) وما اشتق منه يدل على السهولة واليسر واللين. جاء في (لسان العرب): ((والتسريح: التسهيل، وشيء سريح: سهل، وافعلْ ذلك في سراح ورواح، أي في سهولة))(٥). وجاء في (أساس البلاغة): ((سرّحت شعرها: مشّطته . . . وأمر سريح: لا مطل فيه . . . وناقة سُرُح ومنسرحة: سريعة سهلة السير . . . وسيل سارح: يجري جريًا سهلاً))(٦). وجاء في (تاج العروس): ((والتسريح: التسهيل والتفريج . . . والتسريح: حل الشعر وإرساله قبل المشط . . . وشيء سريح: سهل))(٧).

وإذا تأملنا سياق الآيتين رأينا أن آية البقرة يكتنفها ما يدل على السهولة واليسر واللين في مفارقة الأزواج، قال تعالى: ﴿ الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ [٢٢٨]، وقال: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [٢٣٢] فناسب ذلك ذكر الفعل (سرحوهن).

إن الله سبحانه يأمر بتخلية سبيل المرأة بسهولة ويسر من غير إضرار بها، ولذا فإن لفظة التسريح لم ترد في القرآن الكريم إلا موصوفة بالمعروف أو الجمال. حتى إن رسول الله عليه الصلاة والسلام

(١) الجوهري: **الصحاح** ٣٧٤/١ (مادة سرح).
(٢) الفيومي: **المصباح المنير** ١٠٤ (مادة سرح).
(٣) الزبيدي: **تاج العروس** ٤٦٣/٦ (مادة سرح).
(٤) الأندلسي: أبو حيان . **البحر المحيط** ٢٧٨/٨.
(٥) ابن منظور: **لسان العرب** ١٩٨٥ (مادة سرح).
(٦) الزمخشري: **أساس البلاغة** ٤٤٨/١ (مادة سرح).
(٧) الزبيدي: **تاج العروس** ٤٦٤/٦ . ٤٦٨ (مادة سرح).

أُمِر أن يقول لأزواجه عند تخييرهنّ بين الفراق أو البقاء في عصمته: ﴿ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ﴾ فاستعمل السراح دون الفراق؛ لأن لفظ الفراق أقرب إلى الإساءة منه إلى الإحسان كما ذكر ابن الزبير.

المبحث الثاني: منهج ابن الزبير في التوجيه اللفظي:

عني ابن الزبير بالتوجيه اللفظي للأفعال المتقاربة في المعنى كما رأينا عنايته بالتوجيه المعنوي لها. وكذلك نرى أنماطًا وصورًا مختلفة في توجيهه، فقد يمهد ببيان الاستعمال اللغوي للفعلين، وقد يكون التوجيه بحسب ما يكتنف اللفظة من ألفاظ شبيهة بها تقتضي وجود هذه اللفظة معها، وقد يجمع بين التوجيهين اللفظي والمعنوي للآيتين المتشابهتين، وقد يكون بحسب العموم والخصوص، وإليك التفصيل:

أولاً: الاستعمال اللغوي للفعلين:

قد يذكر ابن الزبير الاستعمال اللغوي للفعلين قبل الشروع في توجيهه، ومن أمثلة ذلك كلامه على قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [هود:٤٠]، وقوله: ﴿فَإِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٧].

إن الآيتين تتحدثان عن قصة نوح عليه السلام، وفي كلتا الآيتين يأمر الله نوحًا أن يحمل في السفينة من كلٍّ زوجين اثنين، لكن الأمر كان في الأولى بقوله: (احمل فيها) ، وفي الثانية بقوله: (اسلك فيها).

يمهد ابن الزبير لتوجيهه ببيان الاستعمال اللغوي للفعلين، فيذكر أن لفظ (احمل) أوسع استعمالاً في اللغة من لفظ (اسلك)، ويدلل على ذلك بأنك تقول: (حملت الشيء إلى فلان)، و(حملته على كاهلي)، و(حملت العلم عن فلان)، و(حمل فلان الأمانة)، و(حمله الغضب على كذا)، و(حمل الفارس على صاحبه)، و(حملتِ المرأة والشجرة)، ولا تقول في شيء من هذا (سلك).

أما (سلك) فهي أقل استعمالاً، فإن العرب تقول: (سلكت الشيء في الشيء)، و(أسلكته) أي أدخلته، قال تعالى: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ [القصص:٣٢] أي: أدخلْها، وقال: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ [المدّثر:٤٢] أي: ما أدخلكم، وقال: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً﴾ [الجن:١٧] أي: يدخله فيه[١].

(١) ابن الزبير: ينظر **ملاك التأويل** ٥١٦/٢ . ٥١٧.

وقد ربط ابن الزبير ما بين سعة استعمال (احمل) وتفصيل الكلام في سورة هود، وما بين قلة استعمال (اسلك) والإيجاز والإجمال في سورة المؤمنين. إذ إن قصة نوح في سورة هود أطول منها في سورة المؤمنين. جاء في (ملاك التأويل): ((فوجه ورودها في سورة هود مناسبتها من حيث المعنى ومن حيث ما اقترن بها من لفظ (قلنا) فطال الكلام لفظًا مع ما أشرنا إليه من سعة المحامل وإن لم يرد جميعها هنا، لكن ناسب مجموع هذه العبارة ما ورد في سورة هود من استيفاء قصة نوح عليه السلام وطول الكلام بذلك.

وأما آية المؤمنين ففي قصة نوح فيها إيجاز وإجمال، ألا ترى أنها في كلمها وعدد حروفها . أعني آية هود . على الضِّعف، أو أطول مما في سورة المؤمنين. فلذلك ورد في سورة المؤمنين لفظ (اسلك) لإيجازه من حيث معناه وعروّه عن اقتران لفظ (قلنا) أو غيره مما يحرز الطول، بخلاف ما في سورة هود.

ومما يعضد هذا المقصد ويشهد له قوله تعالى في سورة هود: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾، وفي سورة المؤمنين: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ فتأمل تنظير (حتى وإذا) . وهي على أربعة أحرف . بفاء التعقيب في سورة المؤمنين في قوله: (فإذا)، وإنما الفاء على حرف واحد، فنوسب بالفاء موضعها المبني على الإيجاز، وبـ(حتى) موضعها المبني على الاستيفاء والطول)) [(١)].

ويمكننا إضافة سبب آخر للتخصيص مستفيدين مما ذكر ابن الزبير من سعة استعمال (احملْ) وضيق استعمال (اسلكْ) فنقول: إنه في آية هود أسند الله تعالى القول إلى نفسه فقال: ﴿قُلْنَا احْمِلْ﴾. أما في آية (المؤمنون) فقد ذكر أن الأمر كان عن طريق الإيحاء فقال: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا . . .﴾ الآية، فناسب إسناد القول إلى ذاته العلية أن يأمر بقوله: (احمل) الذي هو أوسع استعمالاً، وناسب الإيحاء أن يقول: (اسلك) الذي هو أضيق استعمالاً والله أعلم.

إن السلوك هو النفاذ في الطريق، يقال: سلكت الطريق، قال تعالى: ﴿ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً ﴾ [نوح: ٢٠] ، وقد يأتي بمعنى الدخول، يقال: سلك يده في الجيب وأسلكها: أدخلها فيه[(٢)]. جاء في (معجم مقاييس اللغة): (سلك) السين واللام والكاف أصل يدل على نفوذ شيء في شيء. يقال: سلكت

(١) ابن الزبير: **ملاك التأويل** ٥١٧/٢ . ٥١٨.

(٢) الأصفهاني: الراغب . **المفردات في غريب القرآن** . ص ٢٤٥، وينظر الفيروزابادي: **القاموس المحيط** ٣٠٧/٣ ، وابن منظور: **لسان العرب** ٢٠٧٣. (مادة: سلك).

الطريق أسلكه، وسلكت الشيء في الشيء: أنفذته)) [١]. وجاء في (روح المعاني): ((﴿فَاسْلُكْ فِيهَا﴾ أي أدخل فيها، يقال: سلك فيه،أي دخل فيه،وسلكه فيه،أي أدخله فيه،ومنه قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾))[٢].

إن الحمل عادة يكون بعد السلوك، فالسلوك أسبق من الحمل، إذ لا بد أن يكون هناك إدخال أولاً ثم حمل، وقد ذكر في قصة نوح في سورة هود ما يدل على الحمل، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾، وقوله: ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ إذ كيف تجري بهم إلا إذا كانوا محمولين فيها؟ وقوله: ﴿ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا ﴾، وقوله: ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ ﴾ فالهبوط يقتضي أنه كان محمولاً في السفينة ثم يهبط منها، في حين لم يرد في القصة في سورة المؤمنين ذكر للحمل ولا ما يدل على الحمل، وإنما قال: ﴿ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ . فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٢٧ . ٢٩] وتنتهي القصة، ولا نرى أي ذكر للحمل ولا ما يدل عليه، فكان من المناسب ذكر الحمل في آية هود وحدها[٣].

ثانيًا: التوجيه بحسب السمة التعبيرية للسياق:

قد يوجه ابن الزبير الآيتين بحسب ما يكتنف اللفظة من ألفاظ شبيهة بها تقتضي وجود هذه اللفظة معها، من ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾ [طه: ٥٣] بذكر الفعل (سلك)، وقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:١٠] بذكر الفعل (جعل).

يقول ابن الزبير: إن سبب التخصيص هو أنه ((اكتنف لفظ (جعل) في الزخرف قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾ [٣]، وقوله بعدها: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [١٢] فناسب هذا ذكر الجعل)) [٤].

وهذا الاكتناف أورده في توجيه آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ [النحل: ٣٤]، وقوله: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ [الزمر: ٥١].

---

(١) ابن فارس: أبو الحسين (ت ٣٩٥هـ/١٠٠٤م) . **معجم مقاييس اللغة** . تحقيق عبد السلام هارون . الطبعة الثالثة . مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر. ١٤٠٠هـ . ١٩٨٠م . ٩٧/٣.

(٢) الآلوسي: **روح المعاني** ٢٦٠/١٨.

(٣) السامرائي: فاضل . **برنامج لمسات بيانية** . قناة الشارقة الفضائية.

(٤) ابن الزبير: **ملاك التأويل** ٢/ ٦٨٥.

فقد ذكر أن آية النحل تقدمها قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [٢٨] فقد قيل بناءً على قولهم: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ وتناسب هذا بيّن.

أما آية الزمر فقد تقدمها قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون﴾ [٤٨] ، ثم قال بعدها: ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [٥٠]، ثم قال: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاء سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ [٥١] فلما وقعت الآية بين ألفاظ الكسب ناسب اختيار فعل الكسب(١).

ثالثًا: الجمع بين التوجيهين اللفظي والمعنوي:

ذكرنا أن من منهج ابن الزبير الجمع بين التوجيهين اللفظي والمعنوي للآيتين المتشابهتين. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا﴾ [البقرة:١٧٠]، وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا﴾ [لقمان:٢١]

وقد مر بنا التوجيه المعنوي للآيتين. وقد أضاف ابن الزبير توجيهًا لفظيًّا لهما فقال: ((وجواب ثان: وهو أن (ألفى) أكثر حروفًا من (وجد)، فناسب لفظ (ألفى) طول آية البقرة، وناسب لفظ (وجد) إيجاز آية لقمان، مراعاة ملحوظة في البلاغة، فحصل التناسب في اللفظ والمعنى))(٢).

ويبدو لي أن هذا التوجيه يكتنفه التكلف، إذ ليس هناك فرق كبير بين عدد كلمات الآيتين، إذ إن عدد كلمات آية البقرة (٢٢) اثنتان وعشرون كلمة، وعدد كلمات آية لقمان (٢١) إحدى وعشرون كلمة، فالفرق بينهما كلمة واحدة، ولذا أقول: ليس من المناسب بناء التوجيه على هذا الفرق البسيط بينهما.

رابعًا: العموم والخصوص:

قد يوجه ابن الزبير الآيتين وفقًا لما يفيده الفعلان في سياقهما من العموم والخصوص، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١١]، وقوله: ﴿قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣٦] بذكر فعل الإرسال في آية الأعراف، وفعل البعث في آية الشعراء.

(١) ينظر ابن الزبير: **ملاك التأويل** ٢/ ٦٠١ . ٦٠٢.
(٢) ابن الزبير: **ملاك التأويل** ١٠٤/١.

تناول ابن الزبير الآيتين من حيث الخصوص والعموم، فذكر أن السبب هو أن الفعل (أرسلْ) أخص في باب الإرسال من (ابعث)، واستدل على ذلك أنه لا يقال: (أرسلْ) إلا فيما كان فيه معنى الانتقال حقيقة أو مجازًا.

أما (بعث) فهو أوسع، فإنه يقع بمعنى الإرسال وبمعنى الإحياء، ومنه البعث الأخروي، أي فيه اشتراك.

وفي الاستعمال القرآني إذا وردت لفظتان متقاربتان في المعنى، لكن إحداهما تدل على الخصوص، والأخرى تدل على العموم، فإنه يرد ذكر ما يدل على الخصوص أولاً، ولذا ذكر الفعل (أرسل) الدالّ على الخصوص في سورة (الأعراف) المذكورة أولاً، وذكر الفعل (ابعث) الدالّ على العموم في السورة المذكورة ثانيًا وهي الشعراء(١).

أما الخطيب الإسكافي فيوجه آيتي الأعراف والشعراء توجيهًا آخر فيقول: إن البعث لا يتضمن ترتيبًا، أما الإرسال فأصله تنفيذ من فوق إلى أسفل.

وبناء على هذا المعنى لكلا الفعلين يتبين له سبب التخصيص، فيقول: إن (("أرسل" في سورة الأعراف حكاية قول العامة للملأ المؤدين كلام فرعون إليهم، فلما تعالى عليهم ولم يخاطبهم بنفسه كان قولهم في جواب ما استأمرهم فيه واستشارهم في فعله على الترتيب الذي رتب لهم في الخطاب، فكانت الحكاية باللفظ الذي يفخم، كما فخم تحميله ملأه أن يؤدوا كلامه إلى مَن دونهم.

ولما تناولت الحكاية في سورة الشعراء ما تولاه فرعون بنفسه من مخاطبة قومه بإسقاط الحجاب بينهم وبينه، وتسوية قدرهم بقدره لقوله: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ﴾ [الشعراء: ٣٤] كان هذا الموضع مخالفًا للموضع الأول في مقتضى الحال من التفخيم، فخصّ باللفظ الذي ليس فيه ما في الأول من التعظيم وهو قوله: (ابعث))) (٢).

ويوضح بدر الدين بن جماعة قول الخطيب فيقول: ((ان (أرسلْ) أكثر تفخيمًا من (ابعث) وأعلى رتبة لإشعاره بالفوقية. ففي الأعراف حكى قول الملأ لفرعون، فناسب خطابهم له بما هو أعظم رتبة تفخيمًا له. وفي الشعراء صدّر الكلام بأنه هو القائل لهم، فناسب تنازله معهم ومشاورته لهم قولهم: (ابعث)))(٣).

(١) ينظر ابن الزبير: **ملاك التأويل** ٤٣٩/١.

(٢) الإسكافي: الخطيب . **درة التنزيل** ٩٤ . ٩٥.

(٣) ابن جماعة: **كشف المعاني** ١٨٦ . ١٨٧.

ويرى الأنصاري أن اللفظتين بمعنى واحد، وإنما خصصت كل آية بلفظتها ((تكثيرًا للفائدة في التعبير عن المراد بلفظين متساويين معنى))[١].

ونقول: إنهما ليسا بمعنى واحد تمامًا، إذ البعث فيه معنى الإرسال وزيادة ، إذ فيه معنى الإثارة والتهييج، جاء في (المفردات في غريب القرآن): ((أصل البعث إثارة الشيء وتوجيهه، يقال: بعثته فانبعث))[٢]. وجاء في (لسان العرب): ((والبعث في كلام العرب على وجهين: أحدهما: الإرسال كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى﴾ [الأعراف: ١٠٣] معناه: أرسلنا، والبعث: إثارة بارك أو قاعد، تقول: بعث البعير فانبعث، أي أثرته فثار . . . وبعث البعير فانبعث: حلّ عقاله فأرسله، أو كان باركًا فهاجه))[٣].

وقد يجمع بين أكثر من تناسب لفظي للآيتين، أحدهما: ما يفيده الفعلان من العموم والخصوص، والآخر: بحسب صيغ كلماتها، مثال ذلك كلامه على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ﴾[البقرة:٤٩] بذكر الفعل (يذبّحون).

وقوله: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ﴾[الأعراف:١٤١] بذكر الفعل (يقتّلون).

فقد وجههما بناء على ما يفيده الفعلان من العموم والخصوص فقال: ((إن الذبح منبئ عن القتل وصفته، وأما اسم القتل فلا يُفهِم غير إعدام الحياة بتناول من غير المقتول في الغالب)) [٤]. وهذا يعني أن الذبح يدل على الخصوص، والقتل يدل على العموم.

ثم يوجه آية البقرة بناء على ذلك فيقول: ((فعبّر أولاً بما يوفي المقصود من الإخبار بالقتل وصفته مع إحراز الإيجاز. . . فقيل: يذبّحون)) [٥].

ومن الواضح أنه بدأ بالفعل الدالّ على الخصوص وهو الذبح ثم الفعل الدالّ على العموم وهو القتل وفقًا لقاعدة الاستعمال القرآني.

(١) الأنصاري: **فتح الرحمن** ٢٠٤.
(٢) الأصفهاني: الراغب . **المفردات في غريب القرآن** ٦٣.
(٣) ابن منظور: **لسان العرب** ٣٠٧ (مادة: بعث).
(٤) ابن الزبير: **ملاك التأويل** ٥٥/١.
(٥) المرجع نفسه، ٥٥/١.

والأمر الآخر أنه وجّه الآيتين بحسب تناسب صيغ كلماتها، فذكر أن سبب قوله: (يذبّحون) بالتضعيف في آية البقرة هو أنه قال: (نجّيناكم) بالتضعيف أيضًا فقال: ((فإن التضعيف في (نجّيناكم) يناسب التضعيف بعده في قوله: (يذبّحون)، ولم يكن لفظ (أنجيناكم) غير المضاعف ليناسب (يذبّحون) فروعي مناسبة اللفظ بما بعد))[١].

وذكر أن سبب قوله: (يقْتُلون) في آية الأعراف هو أن لفظ (يقْتُلون) ((أوجز من لفظ (يذبّحون) لأجل التضعيف، إذ لفظ (يذبّحون) أثقل لتضعيفه))[٢].

ومن الواضح أن ابن الزبير وجّه آية الأعراف وفقًا لرواية ورش عن نافع ﴿يُقْتُلُونَ أَبْنَاءكُمْ﴾ بتخفيف التاء[٣].

ويبدو لي أن هذا التوجيه فيه من التكلف ما فيه، إذ لو أخذ برواية حفص عن عاصم ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءكُمْ﴾ بتضعيف الفعل لبطل هذا التوجيه، إذ سيصير الفعلان (يذبّحون) و(يقتّلون) مضعفين والله أعلم.

خاتمة البحث:

في ختام رحلتي مع موضوع (منهج ابن الزبير في توجيه الفعلين المتقاربين في المعنى من خلال كتاب ملاك التأويل ـ دراسة تحليلية موازنة) يمكنني أن أجمل النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث بالنقاط الآتية:

١ ـ عني ابن الزبير بالتوجيه المعنوي للأفعال كما عني بالتوجيه اللفظي لها.

٢ ـ في توجيهه المعنوي رأينا أن هناك تنوعًا في طريقة توجيهه الأفعال، فقد ينقل عن المفسرين ما ذكروه من الفروق بين الأفعال كما في (انفجرت) و(انبجست). وقد يذكر الحكم النحوي للفعلين قبل الشروع في توجيه الآيتين كما في (ألفينا) و(وجدنا). وقد يذكر الفرق بين الفعلين من خلال الاستعمال القرآني لهما كما في (رددت ورجعت)، و(خلق وجعل)، و(سارعوا وسابقوا). وقد يشرع في التوجيه من دون تمهيد كما في (سرحوهنّ) و(فارقوهنّ).

---

(١) ابن الزبير: **ملاك التأويل** ١/٥٥.

(٢) المرجع نفسه، ١/٥٥.

(٣) ينظر القيسي: مكي بن أبي طالب (ت ٤٣٧هـ/١٠٤٥م) ـ **التبصرة في القراءات السبع** ـ تحقيق محمد غوث الندوي الدار السلفية ـ الهند ـ الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م ـ ٥١٦.

٣ . وفي توجيهه اللفظي للأفعال رأينا أنماطًا وصورًا مختلفة، فقد يذكر الاستعمال اللغوي للفعلين قبل الشروع في التوجيه كما في (احمل) و(اسلك)، وقد يكون بحسب السمة التعبيرية للسياق كما في (سلك وجعل)، و(عملوا وكسبوا). وقد يجمع بين التوجيهين اللفظي والمعنوي كما في (ألفينا) و(وجدنا)، وقد يكون بحسب العموم والخصوص كما في (أرسلْ وابعث) و(يذبّحون ويقتّلون).

٤ . قد لا يكون هناك رابط بين الحكم النحوي الذي يذكره ابن الزبير للفعلين وتوجيهه لهما كما رأينا ذلك في توجيهه الفعلين (ألفى) و(وجد).

٥ . قد لا يذكر المفسرون وأصحاب المعاجم الفرق بين الفعلين المتقاربين في المعنى، أو يذكرون أنهما بمعنى واحد، ولكن يتوصل ابن الزبير إلى الفرق من خلال الاستعمال القرآني لهما.

٦ . انفرد ابن الزبير بتوجيه بعض الأفعال كما رأينا ذلك في الفعلين (سرحوهنّ) و(فارقوهنّ).

٧ . قد يكتنف توجيه ابن الزبير بعض التكلف كما رأينا ذلك في توجيهه الفعلين (يذبّحون) و(يقتّلون)، والفعلين (ألفينا) و(وجدنا).

المراجع

الإسكافي: الخطيب . درة التنزيل وغرة التأويل . الطبعة الأولى . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . ١٤١٦هـ . ١٩٩٥م.

الأصفهاني: الراغب . المفردات في غريب القرآن . الطبعة الأولى . دار المعرفة . بيروت . لبنان . ء ١٤٢٠هـ . ١٩٩٩م.

الآلوسي: شهاب الدين محمود . روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني . دار إحياء التراث العربي . بيروت.

الأندلسي: أبو حيان:

أ . التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل . تحقيق حسن هنداوي . الطبعة الأولى . دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع . السعودية . الرياض . ١٤٢٦هـ . ٢٠٠٥م.

ب . البحر المحيط . تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وآخرين . الطبعة الأولى . دار الكتب العلمية . بيروت . ١٤١٣هـ . ١٩٩٣م.

الأندلسي: ابن عطية . المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز . تحقيق الرحالة الفاروق وآخرين . الطبعة الثانية . وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في قطر . ١٤٢٨هـ . ٢٠٠٧م.

الأنصاري: أبو يحيى زكريا . فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن . تحقيق محمد علي الصابوني . الطبعة الأولى . دار القرآن الكريم . بيروت . لبنان . ١٤٠٣هـ . ١٩٨٣م.

البغوي: أبو محمد . معالم التنزيل المعروف بـ(تفسير البغوي). تحقيق محمد عبد الله النمر وصاحبيه . دار طيبة للنشر والتوزيع . الرياض ١٤٠٩هـ.

بنت الشاطئ: عائشة عبد الرحمن . الإعجاز البياني للقـــرآن . الطبعة الثالثة . دار المعارف . ١٤٠٤هـ . ١٩٨٤م.

البيضاوي: عبد الله بن عمر . أنوار التنزيل وأسرار التأويل . تقديم محمد عبد الرحمن المرعشلي . الطبعة الأولى . دار إحياء التراث العربي . بيروت.

الثعلبي: أبو إسحاق أحمد بن محمد . الكشف والبيان المعروف بـ(تفسير الثعلبي) . تحقيق أبي محمد بن عاشور . الطبعة الأولى . دار إحياء التراث العربي . بيروت . لبنان . ١٤٢٢هـ . ٢٠٠٢م.

الجبالي: محمد رجائي أحمد . توجيه المتشابه اللفظي بين القدامى والمحدثين، أحمد الغرناطي وفاضل السامرائي: دراسة مقارنة . رسالة دكتوراه . جامعة الملايا . كوالالمبور ٢٠١٢م.

ابن جماعة: بدر الدين . كشف المعاني في المتشابه من المثاني . تحقيق عبد الجواد خلف . الطبعة الأولى . دار الوفاء للنشر والتوزيع . المنصورة . ١٤١٠هـ . ١٩٩٠م.

الجوهري: إسماعيل بن حمّاد . الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية . تحقيق أحمد عبد الغفور عطار . الطبعة الرابعة . دار العلم للملايين . بيروت . لبنان . ١٩٩٠م.

ابن الخطيب: لسان الدين . الإحاطة في أخبار غرناطة . تحقيق الدكتور محمد عبد الله عنان . الطبعة الثانية . مكتبة الخانجي بالقاهرة . ١٣٩٣هـ . ١٩٧٣م.

الرازي: فخر الدين . تفسير الرازي . الطبعة الأولى . دار الفكر . بيروت . لبنان . ١٤٠١هـ . ١٩٨١م.

الزبيدي: محمد مرتضى . تاج العروس من جواهر القاموس . تحقيق عبد المجيد قطامش . الطبعة الأولى . المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب . الكويت . ١٤٢٢هـ . ٢٠٠١م.

الزركشي: بدر الدين . البرهان في علوم القرآن . تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم . الطبعة الأولى . دار إحياء الكتب العربية . ١٣٧٦هـ . ١٩٥٧م.

الزمخشري: جار الله محمود بن عمر:

أ . أساس البلاغة . تحقيق محمد باسل عيون السود . الطبعة الأولى . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . ١٤١٩هـ . ١٩٩٨م.

ب . تفسير الكشاف . تحقيق عادل أحمد عبد الموجود . الطبعة الأولى . مكتبة العبيكان . ١٤١٨هـ . ١٩٩٨م.

السامرائي: فاضل صالح:

أ . أسئلة بيانية في القرآن الكريم . الطبعة الثالثة . دار ابن كثير . سوريا . دمشق . ١٤٣٧هـ . ٢٠١٦م.

ب . التعبير القرآني . الطبعة الثانية . دار ابن كثير . سوريا . دمشق . ١٤٣٧هـ . ٢٠١٦م.

ج . من أسرار البيان القرآني . الطبعة الثالثة . دار الفكر . عمان . الأردن . ١٤٣٣هـ . ٢٠١٢م.

د. برنامج لمسات بيانية . فاضل صالح السامرائي . قناة الشارقة الفضائية.

السيوطي: جلال الدين:

أ . الإتقان في علوم القرآن . تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم . المكتبة العصرية للطباعة والنشر . بيروت ١٤٠٧هـ . ١٩٨٧م.

ب . بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة . تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم . الطبعة الأولى. مطبعة عيسى البابي الحلبي . ١٣٨٤هـ . ١٩٦٤م.

الشوكاني: محمد بن علي . البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع . الطبعة الأولى . مطبعة السعادة بمصر . ١٣٨٤هـ.

الطبرسي: الفضل بن الحسن . مجمع البيان في تفسير القرآن . الطبعة الأولى . دار العلوم للنشر والتوزيع . بيروت . لبنان. ١٤٢٦هـ . ٢٠٠٥م.

العسقلاني: ابن حجر . الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة . تحقيق محمد سيد جاد الحق . دار الكتب الحديثة.

ابن عقيل: بهاء الدين . شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . مكتبة دار التراث . ١٤٢٦هـ . ٢٠٠٥م.

الغرناطي: أحمد بن الزبير . ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل . تحقيق محمود كامل أحمد . الطبعة الأولى . دار النهضة العربية . بيروت . لبنان .

١٤٠٥هـ . ١٩٨٥م، والأخرى بتحقيق سعيد الفلاّح . الطبعة الأولى . دار الغرب الإسلامي . بيروت . ١٩٨٣م .

ابن فارس: أبو الحسين . معجم مقاييس اللغة . تحقيق عبد السلام هارون . الطبعة الثالثة . مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر. ١٤٠٠هـ . ١٩٨٠م.

الفراهيدي: الخليل بن أحمد. كتاب العين . تحقيق الدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي . دار الرشيد للنشر.

الفيروزابادي: مجد الدين: القاموس المحيط . الطبعة الثالثة . المطبعة المصرية . ١٣٥٣هـ . ١٩٣٥م.

الفيومي: أحمد بن محمد . المصباح المنير . مكتبة لبنان . بيروت ١٩٨٧م.

القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد . الجامع لأحكام القرآن . تحقيق عبد الله التركي . الطبعة الأولى . مؤسسة الرسالة . ١٤٢٧هـ . ٢٠٠٦م.

قطب: سيد . في ظلال القرآن . الطبعة الثانية والثلاثون . دار الشروق . ١٤٢٣هـ . ٢٠٠٣م.

القيسي: مكي بن أبي طالب . التبصرة في القراءات السبع . تحقيق محمد غوث الندوي . الطبعة الثانية . الدار السلفية . الهند . ١٤٠٢هـ . ١٩٨٢م.

الكرماني: محمود بن حمزة . البرهان في متشابه القرآن . تحقيق عبد القادر أحمد عطا . دار الفضيلة.

مجمع اللغة العربية . المعجم الوسيط . الطبعة الرابعة . مكتبة الشروق الدولية . ١٤٢٥هـ . ٢٠٠٤م.

المراكشي: أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري (ت٧٠٣هـ/١٣٠٣م) . الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة . تحقيق الدكتور إحسان عباس وآخرين . الطبعة الأولى . دار الغرب الإسلامي . تونس . ٢٠١٢م.

مشاهرة: مشهور . المتشابه اللفظي في القرآن الكريم دراسة نقدية بلاغية . الطبعة الأولى . عالم الكتب الحديث . الأردن . ١٤٣١هـ . ٢٠١٠م.

المنجد: محمد نور الدين . الترادف في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق . الطبعة الأولى . دار الفكر . سوريا . ١٩٩٧م .

ابن منظور: محمد بن مكرم . لسان العرب . دار المعارف . مصر .

الواحدي: أبو الحسن علي بن أحمد الوسيط في تفسير القرآن المجيد . تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وآخرين . الطبعة الأولى . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . ١٤١٥هـ . ١٩٩٤م.